اسم المقال: حوزة سامراء والهوية الوطنية
اسم الكاتب: أ.م.د. احمد علي محمد
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/1503
تاريخ الاسترداد: 2025/05/12 06:38 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة قضايا سياسية الصادرة عن كلية العلوم السياسية في جامعة النهرين ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

حوزة سامراء والهُويّة الوطنية

Samarra Hawza and National Identity

ا.م.د. احمد علي محمد *

الملخص:

لخصوصية مدينة سامراء الحضارية والدينية والديموغرافية انعكاسها البين على الرؤى الهوياتية لحوزة سامراء التي احتفظت بخصوصيتها من بين الحوزات العلمية الشيعية الاخرى، فقد ادركت المرجعيات الدينية مركزية سامراء واهميتها في الاطار الديني والوطني وضرورة مراعاة خصوصية المدينة كضامن مهم للوحدة الوطنية والتعايش المجتمعي، ومن خلال ذلك ارست حوزة سامراء اسس الخط الوطني في مسار المرجعية الدينية الشيعية، وقد حمل هذا الادراك رؤية استشرافية مستبصرة جسدتها احداث ما بعد عام2003 لا سيما عقب تفجير المرقدين الشريفين في 2006، والتي بينت ان سامراء تشكل مركز العصب في بنية المشروع الوطني العراقي وهويته الوطنية.

الكلمات المفتاحية: المرجعية الدينية – حوزة سامراء – الهوية الوطنية – الشيرازي

Abstract:

The specificity of the civilizational, religious and demographic city of Samarra had a clear reflection on the identity visions of the(Samarra's Hawza), which preserved its peculiarity among the other Shiite religious schools . The (Samarra's Hawza) established the national line in (Religious Marjaia) path, and this realization carried a forward-looking vision embodied by the post-2003 events, especially after the bombing of the two holy shrines in 2006, which showed that Samarra is the nerve center in the structure of the Iraqi national project and its national identity.

Key words: Al-marjaia , Samarra Hawza , National Identity , Shirazi.

* كلية القانون والعلوم السياسية – جامعة الانبار dr.ahmedpolitics@uoanbar.edu.iq

المقدمة:

جاء تطور التشيع في العراق الحديث في اطار سياق تاريخي واجتماعي وسياسي متعثر ومليء بالتحديات، فقد كانت الدولة العثمانية ترى ان كل شيعي موال لبلاد فارس، فضيقت على شيعة العراق، وعلى مرجعياتهم، كما لم يحظَ التشيع برعاية الدولة الوطنية عقب تأسيسها في الثلث الاول من القرن المنصرم، بل عمدت الى سلب الادوار السياسية لرجال الدين الشيعة، ومع ذلك لم تتأسس لشيعة العراق هوية سياسية شيعية على نحو تتقاطع وتتعارض فيه مع الهوية الوطنية العراقية الا في وقت متأخر من القرن الماضي وعلى نحو ضيق يتعلق ببعض النخب المسيسة، ولعل من اهم اسباب ذلك السياق الهوياتي الوطني لتطور التشيع العراقي هو المرجعية الدينية ممثلة بحوزاتها العلمية، وقد جسدت حوزة سامراء هذا المفهوم للهوية الوطنية والوحدة الوطنية افضل تجسيد، مثلما جسدت سامراء الترجمة الواقعية لهذا المفهوم عبر تأريخها العريق وخصوصيتها الدينية والحضارية.

لقد كان لسامراء خصوصية دينية واجتماعية وحضارية فهي مدينة تضرب جذورها عمقاً في التاريخ، ولعلها تختزل تاريخ بلاد ما بين النهرين بأطواره المختلفة، كما انها تضم مرقدي الاماميين العسكريين عليهما السلام وهي الى جانب هذا وذاك ظلت مدينة بأغلبية سكانية سنية، كل ذلك اعطى خصوصية لحوزة سامراء عن سائر الحوزات العلمية الشيعية الاخرى، وانعكس على رؤاها الهوياتية، ومن هنا تتأتى اشكالية الدراسة التي يختزلها السؤال المركزي: كيف نشأت حوزة سامراء؟ وهل كانت تحمل مشروعاً هوياتياً؟ وما ماهية هذا المشروع؟ وما اثر المشروع الشيرازي(محمد حسن ومحمد تقي) في رؤى المرجعية الشيعية للعلاقة بين الوطن والمذهب؟ وما موقع سامراء في اطار هذا المشروع؟ ثم ما الدروس المستخلصة من المشروع الشيرازي في حاضر العراق ومستقبله؟

في اطار اجابتها على تلكم الاسئلة – الاشكاليات تحرت الدراسة الانطلاق من فرضية مركزية واخرى فرعية، الفرضية المركزية هي ان حوزة سامراء والمرجعية الشيرازية هي التي اسست للخط الوطني في مسار المرجعية الشيعية في العراق، وهو الخط الذي اصبح المعلم الابرز للمرجعية الدينية في اطوارها اللاحقة. اما الفرعية فتتمحور حول مركزية سامراء بمرقديها وخصوصيتها الحضارية والسكانية في مشروع بناء الهوية والوحدة الوطنية العراقية، فهي مركز العصب والعطب معاً في بنية هذا المشروع. وقد اعتمدت الدراسة لإثبات فرضيتيها بالمنهج التاريخي فضلا عن المنهج الوصفي التحليلي الى جانب المنهج المقارن

حيثما اقتضى الحال. وتوزعت الدراسة على ثلاثة محاور رئيسة واخرى فرعية، المحور المفاهيمي ثم محور المشروع الشيرازي واخيراً محور سامراء والارث الحضاري والوطني.

أولاً_ الهُويّة والمرجعية: اطار نظري

يحاول هذا المبحث الاحاطة بمفهومي الهُويّة والمرجعية الدينية وتتبّع تطورهما التاريخي, وذلك من خلال مطلبين رئيسين سيختص الاول منهما بتوضيح المقصود بمفهوم الهوية الوطنية, في حين سيلقي الثاني الضوء على مفهوم المرجعية والحوزة الدينية وتطورها التاريخي.

المطلب الاول: في مفهوم الهُويّة الوطنية

ان مفهوم الهوية مفهوم خلافي بين الباحثين كأغلب المفاهيم في العلوم الاجتماعية, والهوية لغةً هي حقيقة الشيء المطلقة وصفاته وخصائصه التي تميزه عن غيره[1]. اما اصطلاحاً فيمكن تعريفه بأنه "وعي الانسان بذاته وانتمائه الى جماعة بشرية قومية او دينية، مجتمعا او امة و طائفة او جماعة في اطار الانتماء الانساني العام"[2]، وبالإمكان القول ان هناك ثلاثة مستويات لتشكيل الهوية:[3]

- المستوى الاول: الفردي، فلكل فرد هويته وخصوصيته.
- المستوى الثاني: الجماعي او الجمعي وهو يمثل ماهو مشترك لجماعة ما.
- المستوى الثالث: هو المستوى الوطني او القومي.

فالهوية اذن هي الصفة التي يتمايز بها الافراد والجماعات عن بعضهم البعض، وتتحد بهم كالاسم، فهي على الصعيد الفردي تعني التمايز، اما على الصعيد الجمعي، فتعني التمايز والتماثل في ان واحد، اي انها تماثل الافراد والجماعة مع بعضهم البعض وتمايزهم كجماعة عن الجماعات الاخرى.[4]

وللهوية في الفكر الانساني تأويلان: ماهوي وبنائي, وعلى حين ان التأويل الماهوي يرى ان الهوية شيء او كينونة اكتملت وانتهى تحققها في الماضي, فان التأويل البنائي يرى انها ليست معطى ثابت بالكامل او جوهر يمتلك وجودا حقيقيا وانما هي تشكّل مستمر وبناء ديناميكي

---

(1) علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات،ط1(بيروت: دار الاحياء العربي،2003)، باب الهاء، ص 201. وكذلك: ابراهيم مصطفى واخرون، المعجم الوسيط، ط2(طهران: مكتبة المرتضوي، 1327هـ)، ج1، ص 998.

(2) عبد الحسين شعبان، الهوية والمواطنة: البدائل الملتبسة والحداثة المتعثرة، ط1(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،2017)، ص20.

(3) نفس المصدر، ص17.

(4) امل هندي الخزعلي، "المواطنة ومتطلبات بناء الهوية المشتركة،" حولية المنتدى،المنتدى الوطني لابحاث الفكر والثقافة، المجلد 1، العدد2، 2009، ص 64.

وعلائقي[1]. وعليه فان الهوية هي حصيلة ديالكتيك اجتماعي وبناء ديناميكي يتشكل في سياقه الوعي او يعاد بناؤه, وان جدل الهويات لا يعني بالضرورة الصراع بينها، بقدر ما هو حالة صراع واتحاد، احتدام واحتواء وعلاقة تمثل وتعلم رغم المغايرة وعدم التجانس والاختلاف.

وقد اضافت نشأة الكيانات السياسية, بعداً سياسياً للهوية الاجتماعية, ما صيرّها هوية اجتماعية– سياسية في آن واحد, وتعد الهوية الوطنية ابرز تجسيد للهويات السياسية – الاجتماعية, وهي مفهوم حديث النشأة مثله مثل المفهوم الحديث للامة والنزعة القومية, ارتبط اساسا ببزوغ انموذج الدولة المركزية الحديثة, او ما يطلق عليه في الادبيات السياسية بالدولة– الامة، وقد بدأ الشكل السياسي المسمى بالدولة – الامة, في الظهور والتبلور في الساحة الاوربية خلال القرون الاربعة الماضية, و منها انتشر الى الخارج, الى ان اصبح النمط السائد في النظام السياسي العالمي المعاصر، ويؤرخ معظم الباحثين بداية ظهور هذا الانموذج بمعاهدة (ويستفاليا) في عام 1648م، فهذه المعاهدة, كانت قد أرست البذور الجنينية لبزوغ الدولة القومية في بعض مناطق اوروبا, والتي منها انتشر هذا الانموذج الى بقية انحاء اوروبا والعالم[2], وترافق مع ظهور انموذج الدولة الحديثة ما يسمى بالهُويّة الوطنية, والتي هي في الاساس هوية اجتماعية –سياسية تفرضها الدولة على مواطنيها, وتمثل مجموع السمات الايجابية التي تميز جماعة سياسية ما(اقليمها ولغتها او لغاتها وتجاربها وتقاليدها وذكرياتها ومعتقداتها الخاصة بها)عن غيرها من الجماعات، وقد اشار (كلود ديبار) وهو احد ابرز دارسي الهوية في الفكر السوسيولوجي المعاصر الى ان "الهوية ليست معطاة وانما تبنى"[3]. لكن ذلك البناء لا يأتي من فراغ، بل لا بد من توافر سمات عامة وموروث تاريخي في تشكيل الهوية، واستندت بعض التعريفات الى تلك المعطيات فعرفتها بانها: "مجموعة من السمات العامة التي تميز شعبا او امة في مرحلة تاريخية معينة"[4] . ومن هذا المنطلق ايضا تعرف (ليورا لوكيتز) الهوية الوطنية بانها: "الفكرة التي تعكس وتحدد سمات الشعب والامة وهي نتاج الثقافة الجماعية التي تشبع الامة بشعور محدد، وتضع الاسس التي تبنى عليها حياة سياسية مستقرة في البلد".[5]

وكما يبدو فان الاصل في مفهوم الدولة– الامة هو ان تعبر الدولة عن امة ذات هوية وطنية قائمة على اساس من العقد الاجتماعي, تجمعها رابطة وطنية عابرة للهويات والانتماءات الفرعية, من غير الغاء او

---

(1) Stewart Hal،"Cultural Identity and Diaspora،" in: Jonathan Rutherford (ed)، Identity: Community، Culture، Difference(London: Laurence and Wishart،1990)، pp .223-225.

(2) سعد الدين ابراهيم (محرراً)، المجتمع والدولة في الوطن العربي، ط2(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996)، ص ص 43-44.

(3) سالم لبيض، الهوية: الاسلام، العروبة، التونسة، ط1(بيروت: مكز دراسات الوحدة العربية،2009)، ص ص 35-36.

(4) نفس المصدر، ص 36.

(5) ليورا لوكيتز، العراق والبحث عن الهوية الوطنية، ترجمة: دلشاد ميران،ط1(اربيل: دار اراس للطباعة،2002)، ص114.

اذابة لتلك الهويات والانتماءات, بل ضمّها جميعا في بوتقة الانتماء الوطني الموحد[1]. فبناء الهوية الوطنية يتضمن خلق نوع من "الوعي الجمعي" بحسب (اميل دوركايم) بين افراد المجتمع الوطني ليشكل اساسا لهويتهم التي تميزهم عن غيرهم من المجتمعات الاخرى وتجعلهم يتجاوزون الانتماء الفرعي الى الولاء لذلك المجتمع، اي الاستعداد للتضحية في سبيله بالهويات الفرعية التي ينتمي اليها الفرد والتي لا ترتقي الى ان تشكل وعيا جمعياً[2].

وبالرغم من ان توافر انتماءات متعددة لجماعات ثقافية متنوعة (تعددية ثقافية) عرقية, لغوية, دينية, طائفية...., يعد عامل اثراء لا فقر في الدولة, غير ان من شأن تلك الانتماءات الفرعية ان تسهم في تحلل الهوية الوطنية حينما يتم طرحها كبديل او مقابل للانتماء الوطني والهوية الوطنية.

وفي الهوية يوجد مستويان من الانتماء يحظيان بالتواصل والاستمرارية وهما العنصر المرتبط بلغة خاصة، والعنصر المرتبط بدين معين، اللذان تكاد ترتبط بهما مختلف الانتماءات والعلاقات الاخرى. وان تسييس هذين المستويين يعد من اهم اسباب تفاقم ازمة الهوية الوطنية في المجتمع، ويرى الدكتور غسان سلامة ان تقديم الانتماء العرقي او الديني على الانتماء الوطني امر طبيعي ذلك "إن الارتباط بالأرض ليس قوياً كمثل الارتباط بالجماعة أو بكلام أخر، فأن إيثار العصبية الفئوية القومية أو الدينية على الوطنية بوصفها التصاقاً بمساحة من الأرض أمر يكاد يكون بديهياً" [3].

أما أريك فروم فإنه ينظر إلى المسألة من زاوية أكثر التصاقاً بعلم النفس، فهو يرى "أن التماهي مع الطبيعة، مع العشيرة، مع الدين يعطي الفرد شعوراً بالأمان، فهو ينتمي إلى كل منظم ويشعر بجذوره فيه ويعرف أن له فيه مكاناً أكيداً. قد يشعر بالجوع أو بالحرمان ولكن لن يبتلى بأسوأ الأوجاع وهي العزلة الكلية والشك"[4].

وعلى الصعيد الديني نجد إن الطوائف المستندة الى تسييس المذهب الديني قد تسهم في تحلل الانتماء الوطني وتمزيق الهوية الوطنية من زاويتين أحدهما تقزيم الانتماء والهوية الوطنية من خلال الامتداد المكاني للمذهب والطائفة، وقد ينعكس ذلك في شعور الفرد بالقرابة الروحية لابن طائفته الموجودة في بلد آخر، حينما يتسع ذلك الشعور بالنسبة إلى امتداد الطائفة في المكان، فالسني مثلاً قد يشعر بقرابة روحية

---

[1] علي عباس مراد، "اشكالية الهوية في العراق: الاصول والحلول،" في: مجموعة باحثين، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، سلسلة كتب مركز المستقبل العربي؛68، ط1(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2013)، ص298.

[2] سالم لبيض، مصدر سابق، ص 37.

[3] غسان سلامة، "قوة الدولة وضعفها: بحث في الثقافة السياسية العربية،" في: مجموعة باحثين، الأمة والدولة والاندماج في الوطن العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، د.ت)، ج1، ص207.

[4] نفس المصدر، ص217.

حيال السني في بلد آخر أعمق من تلك التي يشعر بها حيال الشيعي في بلده، والأمر نفسه يصدق على الشيعي أيضاً أو على ميل الطوائف المسيحية إلى الغرب المسيحي[1] .

ويشير الدكتور حليم بركات إلى خطورة هذا الجانب بقوله "وقد يبتدع الإنسان هويات أسطورية في محاولة لتخليه عن هويته المجتمعية الموضوعية، إن المسيحي اللبناني الذي يَدَّعي أنه أقرب إلى المسيحي الأوربي منه إلى المسلم اللبناني، هو من النوع الذي يبتدع غافلاً هوية وهمية فيما يتخلى عن هويته المجتمعية الحقيقية".[2] ومن ناحية ثانية فان هذا الامتداد المكاني للطائفة قد يُتّخذ مَدخلاً من جهات دولية أو إقليمية لتحقيق مصالح سياسية مما يعمق من انقسام المجتمع.

أما الزاوية الأخرى، فإن الطوائف قد تعمل على تفكيك الانتماء الوطني والهوية الوطنية، وذلك حينما يتضخم الانتماء الطائفي على حساب الانتماء والهوية الوطنية، وحينما تترسخ المؤسسات الطائفية ويفشل المجتمع في إضعافها، الأمر الذي يؤدي إلى انشطار المجتمع إلى جماعات متمايزة تفصلها مؤسساتها الطائفية عن بعضها، مما يجعل من المستحيل في نهاية المطاف الحفاظ على وحدة المجتمع السياسية. [3]

نخلص مما تقدم, الى ان مفهوم الهُويّة في الاصل يشير الى حقيقة الشيء او حقيقة الشخص المطلقة, وقد ترافق مع ظهور انموذج الدولة الحديثة ظهور ما يسمى بالهُويّة الوطنية, والتي هي في الاساس هوية اجتماعية –سياسية تفرضها الدولة على مواطنيها, وتمثل مجموع السمات الايجابية التي تميز جماعة سياسية ما–(لها اقليمها ولغتها او لغاتها وتجاربها وتقاليدها وذكرياتها ومعتقداتها الخاصة بها)–عن غيرها من الجماعات.

المطلب الثاني: في مفهوم المرجعية والحوزة العلمية

لما كانت الإمامة بنظر الشيعة ألاثني عشرية منصباً إلهياً يحتاج الى النص والتعيين، فإن النص على الأئمة قد جاء من الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم من الإمام علي عليه السلام ثم من الأئمة إماماً بعد إمام إلى الحسن العسكري بن علي الهادي عليهما السلام، ثم انتقلت الإمامة إلى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري بعد وفاة أبيه وهو في الخامسة من عمره.[4] وهو الإمام الغائب الذي له غيبتان، صغرى تبدأ منذ ولادته [5]، وقيل منذ وفاة أبيه[6]، وقد كان لديه سفراء أو وكلاء أو نواب هم: عثمان بن سعيد، ثم

---

[1] ناصيف نصار، نحو مجتمع جديد: مقدمات أساسية في نقد المجتمع الطائفي، ط3 (بيروت: دار الطليعة، 1977)، ص 143.
[2] حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، بحث في تغير الأحوال والعلاقات، ط 1 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002)، ص439.
[3] جورج قرم، تعدد الأديان وأنظمة الحكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة (بيروت: دار النهار للنشر، 1979)، ص102.
[4] ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، أعلام الورى بأعلام الهدى، ط3 (النجف: المكتبة الحيدرية، 1970)، ص418.
[5] عبد الهادي الفضلي، في انتظار الإمام، ط1 (بغداد: دار الاندلس، 1979) ، ص29.
[6] علي محمد علي دخيل، الإمام المهدي (النجف: مطبعة الآداب، د.ت)، ص9.

ابنه أبي جعفر، ثم أبي القاسم بن روح، ثم أخيراً الحسن السمري الذي انتهت بوفاته الغيبة الصغرى. [1] ثم الغيبة الثانية وتبدأ من وفاة سفيره الرابع، وتمتد إلى الوقت الحاضر.

ولكن الامر لم يستقر على ذلك فاستطالة ظهور المعصوم وتقدم الزمن والحاح الحاجة وكثرة النوازل قد دفعت بعض الفقهاء الامامية للسير قدما في فتح باب الاجتهاد وطرقت ابواب فقهية كانت مغلقة حتى تلك التي كانت متوقفة على وجود الامام المهدي عليه السلام، وإزاء ذلك برز اتجاهان في أوساط الفقهاء الشيعة، أولهما (الإخباريون) الذين كانوا يرون أن الرعية كلها مقلدة للمعصوم، ولا يوجد مجتهد أصلاً وذهبوا إلى حرمة الاجتهاد، وحصروا مصادر التشريع بالقرآن والحديث النبوي والأئمة عليهم السلام، وثانيهما (الأصوليون) الذين أوجبوا الاجتهاد وحصروا الرعية في صنفين مجتهد ومقلد ولا ثالث لهما، وكانوا يرون أن الإجماع هو مصدر آخر للأحكام، كما اعتبروا إن المجتهدين باعتبارهم ممثلين بصفة عامة للإمام الغائب فإنه يمكنهم أن يقوموا مقامه بإصدار الأحكام وجمع الحقوق الشرعية وإمامة صلوات الجماعة، بينما كان الإخباريون لا يسمحون بالقيام ببعض أو كل المهام في غياب الإمام المعصوم.[2]

والواقع انه ومنذ القرن الرابع الهجري واجه الاتجاه الاخباري اتجاه اصولي قاده الشيخ المفيد (ت413هـ-1021م) والشيخ الطوسي(ت1067م) والكليني (ت940م) حيث سار عليه فقهاء الشيعه ببغداد وهم الذين تحدثوا عن دور المجتهد وبذروا فكرة مؤسسة دينية شيعية وقد شجع هذا الاتجاه وقواه السلطان البويهي[3]

ويعد ابن المطهر الحلي (ت1325م) اول من استخدم كلمة (مجتهد) باعتباره يستنبط الحكم الشرعي فيما يستجد من امور استنادا الى الادلة الشرعية المعتبرة واضعا الاساس الاول لاحتكار الفقهاء للاجتهاد[4].

وابتداء من القرن السابع عشر وفي العهد الصفوي والقاجاري احتدم الصراع بين الاتجاهين الى ان تمكن الاصوليون من استرجاع زمام المبادرة على يد محمد الباقر البهباني(ت1793م) بدعم من السلطة القاجارية. فقد حلل في مؤلفاته وظيفة (المجتهد) وواجباته المختلفة واقر وظيفته الشرعية . وقد اسفرت جهوده عن انحسار الحركة الاخبارية التي لم تقم لها بعد ذلك قائمة[5].

---

[1] 210. محمد بن الحسن الطوسي، الغيبة، ط1 (تبريز: مطبعة تبريز، 1323هـ)، ص228 وما بعدها.

[2] للتفصيل ينظر: عدنان فرحان، ادوار الاجتهاد عند الشيعة الامامية: دراسة منهجية موضوعية تواكب ادوار الاجتهاد، (قم: منشورات المركز العالمي للدراسات الاسلامية، د.ت)، ص ص 103-250.

[3] احمد كاظم موسوي"ظهور مرجعية التقليد في المذهب الشيعي الاثني عشري،" الاجتهاد، العدد4، صيف 1989، ص202.

[4] نفس المصدر، ص203.

[5] للتفصيل ينظر: سعد الانصاري، الفقهاء حكام على الملوك: علماء ايران من العهد الصفوي الى العهد الهلوي: 1500-1979، ط1(طهران: دار الهدى،1986)، ص ص 39 -49.

وتضاربت الاقوال حول اول ظهور للمرجعية المركزية, لكن الراجح انها برزت على نحو جلي في القرن التاسع عشر، وترجّح المصادر ان اول من أُطلق عليه لقب(مرجع مطلق) وفق المعنى المتداول اليوم هو (مرتضى الانصاري)، وقيل ايضاً انه (محمد حسن النجفي1785–1849م) المكنّى بـ "صاحب الجواهر" استاذ (الانصاري)، او هو(جعفر بن خضر الجناجي1741–1812م) المعروف بـ "كاشف الغطاء"، نسبة الى مؤلّفه الشهير: "كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغرّاء"[1].

عزز انتصار المدرسة الاصولية الى حد بعيد السلطة الفقهية للمجتهدين وقدم مبررا شرعيا لتحويل الاموال من العامة الى المجتهدين مباشرة[2]. وقد عزز ذلك من الاستقلال الاقتصادي للمؤسسة الدينية الامامية ازاء السلطات الحاكمة. وزاد من قدرتها على تمويل نظام تعليمي خاص مستقل عن الدولة في الحوزات العلمية في مدن العتبات المقدسة[3].

ولعل من المفيد هنا التمييز بين المرجعية والحوزة، فالمرجعية من الناحية اللغوية تعني الرجوع او العودة الى الآخر، وباصطلاح الفقهاء، هي الجهة الشرعية التي اعتاد العامة من الشيعة الرجوع اليها لمعرفة شؤون دينهم ودنياهم، والمرجع هو اعلى المراتب في تصنيف علماء الدين المجتهدين الذين يقفون في اعلى هرم المؤسسة او المدرسة الدينية الشيعية المسماة بالحوزة العلمية، التي يشير جذرها (حوز)، الى معنى حيازة الشيء او ضمه وجمعه اي حيازة العلم، ويبدو انها تسمية للمدرسة الدينية جاءت متأخرة ولم تكن متداولة او مطروحة، كما تشير بعض المصادر، ثم اصبح هذا الاسم الجديد يطلق على مكان الدراسة الدينية، وتضطلع الحوزة عادة بنقل المعرفة من الجيل السابق الى الجيل اللاحق اي انها تضطلع بحماية وضمان استمرارية الانتاج اللاهوتي والسردي الامامي كوظيفة اساسية الى جانب وظائف اخرى تؤديها من خلال اجزائها الثلاثة الرئيسة:

1–المرجعية، وهي اعلى الهرم الحوزوي، ولأنها جزء رئيسي في الحوزة، فإنها كثيراً ما تُستخدم بدل كلمة حوزة دون ان يتغير من المعنى العام شيء . 2– النظام التعليمي، وهو الاقدم تاريخياً من بين الانظمة

---

[1] فالح عبدالجبار، العمامة والافندي: سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني، ترجمة: أمجد حسين، ط1(بيروت، بغداد: منشورات الجمل،2010)، ص268، وكذلك: علي أحمد البهادلي، الحوزة العلمية في النجف : معالمها وحركتها الاصلاحية 1339-1401هـ/1920-1980م، ط1(بيروت: دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، 1993)، ص ص197-198.

[2] اسحاق نقاش، شيعة العراق (قم: انتشارات المكتبة الحيدرية ،1998)، ص290

[3] النظام التعليمي في المدارس الدينية في مدن العتبات المقدسة يتميز بطابعه الخاص الذي يختلف عن الانظمة المتبعة في المدارس الرسمية فليس لهذه المدارس مدراء او عمداء كما انه ليس لها مدة محددة للتخرج ويضم منهجها التعليمي ثلاث مراحل : السطوح والفضلاء والخارجية. للتفصيل ينظر: عبد الله النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث (بيروت:دار النهار للنشر، 1973)، ص ص51-53.

التي يتألف منها هيكل الحوزة. 3- النظام الاقتصادي الذي يتعلق بالزكاة والخمس، وباقي الحقوق الشرعية، وصرفيات المدارس ورواتب الطلبة والاستثمارات ومعونات المحتاجين وغيرها.[1]

ولعل من اهم القضايا ذات الصلة بالسياق الهوياتي للمرجعية الدينية الشيعية في العراق هي الاصل الفارسي لجل المرجعيات العليا منذ بروز اهمية تلك المؤسسة في العراق الحديث، والواقع ان للنجف الاشرف ثلاث خصال تستهوي الايرانيين الشيعة: الاولى وجود مرقد الامام علي عليه السلام والثانية كونها الحاضرة العلمية الكبرى للشيعة والثالثة وجود مقبرة وادي السلام التي تشجعهم على البقاء في النجف والموت فيها[2] .

والى جانب العامل الديني ارتبطت هجرة الفرس إلى العراق بأسباب سياسية واقتصادية ايضا، واستغل علماء الفرس الذين هاجروا إلى العراق انعدام الاستقرار في البلاد بسبب صعود المماليك في عام 1747م وما تلا ذلك من حكم العراق حكماً عثمانياً غير مباشر حتى عام1831م، وتمكنت العوائل الدينية الفارسية في كربلاء والنجف من أن تطغى على العلماء العرب، ونجحت في السيطرة على الدوائر الدينية، وبرزت الجالية الفارسية والتي قدر عددها بثمانين ألف فارسي في عام 1919م (عدا الزيجات المختلطة) بوصفها أشد المكونات نشاطاً ونفوذاً بين سكان مدن العتبات المقدسة[3].

وقد نشأ عن ذلك وضع اجتماعي فريد كما يرى علي الوردي "هو أن الشيعة الذين يؤلفون أكثرية السكان في العراق هم من العرب، بينما أكثرية علمائهم من الإيرانيين"[4]. واذ يعكس تاريخ المرجعية الشيعية في العراق غلبة العنصر الفارسي على صعيد المراجع الكبار فانه لم يعدم ظهور مرجعيات عربية فاعلة من العلماء العرب العراقيين كـ(آل بحر العلوم) و(آل كاشف الغطاء) و(آل المظفر) وكثيرين غيرهم[5]. يضاف إلى هذا وذاك أنه وعلى الرغم من الولادة والنشأة الايرانية، فقد كان كثير من المجتهدين والعلماء الإيرانيين من السادة ذوي الأصول العربية العلوية، فمنذ القرن الثاني الهجري هاجر إلى إيران كثير من السادة العلويين هرباً من بطش الامويين والعباسيين، فضلاً عما وجدوه من احترام وتبجيل لدى أهلها، وسعي بعض العلويين إلى كسب الأنصار هناك [6].

---

(1) للتفصيل ينظر: خالد حنتوش، "حوزة النجف: البراني والجواني،" في: مجموعة باحثين، شيعة العراق بعد 2003: الرؤى والمسارات، ط1،(بغداد: مكتبة عدنان للطبع والنشر والتوزيع، 2019) ، ص ص363-379.

(2) رسول جعفريان، التشيع في العراق وصلاته بالمرجعية وايران (طهران: د. ن، د.ت)، ص80

(3) للتفصيل يُنظر: إسحاق نقاش، مصدر سابق، ص ص26-29.

(4) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث(لندن: كوفان للنشر ،1991)، ج1، ص11..

(5) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث،ط1(قم: مطبعة امير، 1413ه)، ج4، ص ص 407-408.

(6) للتفصيل حول السادة في بلاد فارس ينظر: رسول جعفريان، الشيعة في إيران: من البداية حتى القرن التاسع الهجري، تعريب: علي هاشم الأسدي، ط 1 (مشهد: الإستانة الرضوية المقدسة، 2000)، ص ص156-163.

والواقع ان الهوية الفارسية لغالبية مراجع النجف الاشرف شكلت منذ تأسيس الدولة العراقية وحتى 2003م احد نقاط الضعف المهمة لها في مواجهة الحكومات العراقية المتعاقبة الى جانب نقطة ضعف اخرى استغلتها تلك الحكومات وهي التنافس على زعامة المرجعية لا سيما بين العرب والفرس .

فضلا عن ذلك, ينبغي ادراك حقيقة وهي ان التحليل المُؤسَّس على مبدأ الهوية القومية لا ينسجم مع الاساس الديني الاممي للمرجعية – ذلك لان طبيعة المرجعية القائمة على العقيدة الدينية، قد حرّرتها من الاطار القومي والمناطقي، مثلها مثل باقي المذاهب والاديان – وان كان قد يحدث احياناً ان تُلقي عوامل موضوعية من خارج المرجعية بظلال قومية ومناطقية، ففي الاساس لا يُشترَط في المرجعية قومية محددة او وطن مخصوص، والتاريخ يؤشر انتقالها بين مراجع من اصول متنوعة[1]، لكن مع ظهور الدول الحديثة وتقاطع المصالح الوطنية والقومية نشا التصور بلزوم ان تكون المرجعية ايرانية او عربية او عراقية او غير ذلك، ولذلك لا يمكن انكار دور العامل القومي في دعم مرجع يحمل انتماء معين لكن هذا التصور ناجم عن تلك الاعتبارات السياسية اكثر مما هو ناجم عن مقتضيات الواقع الشيعي والشاهد على صحة ذلك هو طبيعة المواقف التي تصدر عن المرجعيات الشيعية بمختلف انتماءاتها حيال القضايا التي تعصف بالإسلام او بالأمة والتي لا تختص ببلد معين ومن بين ذلك مواقفها من الاستعمار والصهيونية[2]. ومن هذا المنظور تفاعل اتباع المرجعية في العراق مع مراجعهم، ففي خلال ثورة العشرين في العراق كان قادة العشائر العربية يتآمرون بأوامر المرجعية الشيعية دون ان يخطر في بال احدهم هوية المرجع ونفس الكلام يصدق على مرجعية محمد اليزدي ومحمد حسين النائيني، ومحمد تقي الشيرازي ومرجعية السيد علي السيستاني بعد عام 2003م .

يتضح مما تقدم ان الهوية غير العربية الغالبة على المرجعيات الشيعية في النجف الاشرف لم تكن عائقا امام تفاعل تلك المرجعيات مع القضايا الوطنية المصيرية منذ مطلع القرن الماضي، فلما كان للتشيع العراقي سياق سيسيولوجي مختلف عن سياق التشيع في اي بلد اخر, فأنه قد قدر له ولمدرسة النجف الاشرف كمركز استقطاب مرجعي شيعي ان يتوشحا بالهوية الامامية التقليدية: تقليدية كونها اقتصرت بالدرجة الاساس على الفاعلية الدينية دون السياسية, وبمعنى اخر ان فضاء عمل مدرسة النجف الاشرف الرئيس هو العبادات والمعاملات (وهو وان كان عابرا للحدود الوطنية غير انه لا يتعارض مع الهويات الوطنية كونه امر ديني شخصي) وليس الشأن السياسي الا للضرورة القصوى (تدخل وليس انخراط مرجعي

(1) محمد بحر العلوم، النجف الاشرف والمرجعية الدينية، ط1(بيروت: العارف للمطبوعات، 2015)، ص90.
(2) رسول جعفريان، التشيع في العراق وصلاته بالمرجعية وايران ، مصدر سابق، ص77.

دائم في الشأن السياسي وعلى نحو استثنائي) مع الحذر الشديد من ان يبلغ التدخل مستوى ينتزع فيه الفقيه الوظيفة السياسية التي هي حصرا من اختصاص الامام الغائب وحده ما يهدد بانهيار الركن الرئيس في نظرية الامامة عماد الهوية الامامية الاصل[1].

وحتى عندما تدخلت المرجعية في الشؤون السياسية على نحو انتقائي غير دائم وبحسب طبيعة الموقف وحجمه كما حدث على وجه الخصوص مع مرجعية الشيخ (محمد حسن الشيرازي) ابان الحكم العثماني, ومرجعية الشيخ(محمد تقي الشيرازي) ابان حقبة التحرر والاستقلال الوطني وتشكيل الدولة العراقية, ومرجعيتي السيد(محسن الحكيم), والسيد(علي السيستاني) التي عُدّت الاكثر تسيساً ومعايشة للعواصف السياسية الاجتماعية الهوجاء التي ضربت العراق, فأنها لم ترعَ البتة, مشروعا هوياتيا مذهبيا من شأنه ان يتقاطع مع الهوية الوطنية العراقية, بل على النقيض كان همها وطنيا خالصا, لا بل يبدو ان وطنية مرجعية النجف او عراقيتها وتشربها بالهوية الوطنية هي احد مصادر تشككها بأطروحة ولاية الفقيه المطلقة وما تستبطنه الاخيرة من مشروع هوياتي مذهبي عابر للأوطان, وكذلك اعتصامها(اي مرجعية النجف) بدل ذلك بالهوية الامامية التقليدية(اي التي تقوم على التمييز بين الشأن الديني والسياسي كون الشأن الاخير من اختصاص الامام الغائب حصراً). اي ان مبعث نزوعها نحو الهوية الامامية التقليدية ليس النصوص والسرديات الدينية فحسب, وانما يستبطن كذلك التزاماً مستمراً بالدفاع عن عراقية مرجعية النجف الاشرف ووطنيتها[2]، لتنأى بنفسها عن طروحات ولاية الفقيه المطلقة بل يمكن القول ان تاريخ المرجعية هو الى حد ما تاريخ التنافس العربي الفارسي على قيادتها، وبحكم المكانة الدينية للنجف الاشرف، فانها مؤهلة اكثر للعب الدور الاهم في قيادة العالم الشيعي فيما لو توفر الاستقرار السياسي في العراق وربما يشكل ذلك احد اوجه المنافسة الخفية بين حوزة العراق وحوزة قم . وبوجيز العبارة فأن اهم ما ميز مرجعيات العراق وحوزاته العلمية, هو وطنيتها وعراقيتها، واقتصار فعاليتها السياسية المتذبذبة, في الغالب, على حدود الوطن, اذ انها لم ترع مشروعا هوياتياً مسيساً من شانه تجاوز الهوية الوطنية او تقزيمها.

ثانياً_ المنهج الفكري لحوزة سامراء والمشروع الشيرازي

[1] شروق اياد خضير، "اشكالية الهوية في الفكر الاسلامي المعاصر: المدرسة الامامية نموذجا،" اطروحة دكتوراه، كلية العلوم السياسية- جامعة بغداد، 2020، ص ص 288-289.
[2] نفس المصدر، ص 300.

يسعى هذا المبحث من خلال مطلبين أساسيين, الى القاء الضوء على المنهج الفكري– السياسي لحوزة سامراء, وقد انتخب عنصرين مرجعيين من داخل هذه الحوزة, كمثال حي على الاسس التي قام عليها هذا المنهج. هما بحسب الترتيب التاريخي: (محمد حسن الشيرازي) وتلميذه(محمد تقي الشيرازي) .

المطلب الاول: المنهج الاصلاحي لـ(محمد حسن الشيرازي)

تأسست حوزة سامرّاء بجهود(محمد حسن الشيرازي 1815–1895م)* والذي آلت اليه المرجعية بعد وفاة استاذه في حوزة النجف الاشرف(مرتضى الانصاري). ويبدو ان ما زاد من رفعة مكانة(الشيرازي) في النجف حينها, هو ترفّعه عن استقبال الشاه(ناصر الدين) عندما جاء زائرا الى العتبات المقدسة في العراق, وتحجج (الشيرازي) بالقول: "انا رجل درويش مالي والملوك", وكذلك موقفه عندما حلت ازمة الغلاء, حين بادر الى توزيع الحبوب على المتعففين لحين بلوغ موسم الحصاد التالي[1].

وما ان حل عام 1874م حتى ترسخت مرجعية (الشيرازي) في النجف الاشرف وسائر العالم الاسلامي الامامي. غير ان (الشيرازي) ما لبث حتى قرر ترك النجف الاشرف بين عامي 1874–1875م, متوجها نحو سامراء حيث الروضة العسكرية(تضم ضريحي الامامين العاشر والحادي عشر وسرداب غيبة الامام الثاني عشر من ائمة الشيعة الاثنتي عشرية عليهم السلام فضلا عن اضرحة اخرى). وقد تعددت الاقوال وتضاربت حول اسباب هذه الهجرة, بين قائل ان المرجع كان يفضل العزلة والاعراض عن "الرياسة" تخلصاً من قيودها[2], وقائل انه كان يروم الابتعاد عن (الزقرت والشمرت) الذين ارهقوا البيوتات النجفية [3], وبين قائل انه كان ينوي تحويل سامراء الى مدينة شيعية[4]. غير ان الوقائع التي تلت هجرته, ترجّح ان العامل الاساس من وراء استقراره في سامراء دون غيرها (نترك جانبا ما كان يجري في النجف الاشرف) هو طبيعة هذه المدينة وخصوصيتها: من حيث انها جمعت بين ظهرانيها معلَمين قلّ اجتماعهما في مدينة اخرى وهما معلم الروضة العسكرية وهو من أقدس معالم الشيعة, ومعلم يتعلق بالتكوين الديموغرافي لها, حيث تقطنها

* هو محمد حسن بن ميرزا محمد الحسيني وقد اشتهر بالشيرازي نسبة الى محل ولادته وعُرف كذلك بالمجدّد، ولد في شيراز وتلقى تعليمه الحوزوي الاولي في ايران ثم انتقل الى النجف لإكمال تعليمه العالي او ما يسمى بالعرف الحوزوي مرحلة البحث الخارج، وقد ربطته بأستاذه (مرتضى الانصاري) علاقة وطيدة، وقد تتلمذ على يديه في حوزة سامراء سلسلة طويلة من العلماء والمجتهدين كـ(حسن الصدر) و(محمد كاظم الخرساني) الذي عرف بتأيده للدستورية والمرجع (محمد كاظم اليزدي) و(محمد تقي الشيرازي) و(محمد حسين النائيني) صاحب كتاب (تنبيه الامة وتنزية الملة) واخرين غيرهم.اغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة(النجف: المطبعة العلمية،1373هـ-1954م)، ج1(نقباء البشر في القرن الرابع عشر)، ص ص436-438.

[1] علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ط1(قم: مطبعة امير،1371-1413هـ)، ج3، ص ص86-89.

[2] آغا بزرك الطهراني، مصدر سابق، ص439.

[3] محسن الامين، أعيان الشيعة، اشراف وتحقيق: حسن الامين (بيروت: دار التعارف للمطبوعات،1403هـ-1983م)، ج23، ص271.

[4] يونس السامرائي، تاريخ علماء سامراء (بغداد: مطبعة دار البصري،1966م)، ص ص48-49.

غالبية سنية منذ اتخاذها من قبل(المعتصم) عاصمة للدولة العباسية عام 836 م, مع تواجد اقلية شيعية*, هذا فضلا عن العدد الكبير من الزوار الشيعة الذين كانوا يقصدونها من كل حدب وصوب, فتوخى (الشيرازي) من استقراره في سامراء ارساء معالم تعايش سلمي بين مكونات المدينة نفسها من جانب, وبين سكانها والزوار الوافدين اليها من جانب اخر, ورأب صدع النعرات الطائفية التي غالباً ما كانت تغذيها السلطات الحاكمة, وصولاً الى هدف تحقيق وحدة المسلمين.

فسامراء كانت في الاساس قبل قدوم(الشيرازي) قرية صغيرة منذ ان هجرها العباسيون عام 892 م, وعند استقرار هذا المرجع فيها, عمرت واستحالت من قرية صغيرة الى مدينة عامرة, اذ قام هذا المرجع ببناء سوق كبير وجسر يربط بين ضفتي دجلة لتيسير عبور الزوار اليها, ومدرستين دينيتين تدرسان الفقه الجعفري, فضلاً عن العديد من الدور الخاصة بالطلبة الغزاب والزائرين[1], وقد احبّه الكثير من سكانها لكرمه ومواقفه النبيلة حتى انهم كانوا يشاركونه مواكبه وتعازيه الحسينية لدرجة اثارت معها بعض رجال الدين السنة فاشتكوا عند السلطان (عبد الحميد الثاني) وامر الاخير ببناء مدرسة دينية سنية لهم توازي (مدرسة الشيرازي)[2].

وفي خضم هذا التنابز المذهبي الخفي, اثيرت قضية اتفاقية التنباك التي منحت شركة بريطانية حق احتكار التنباك في ايران, فأصدر (الشيرازي) فتواه الشهيرة: "اليوم استعمال التنباك حرام بأي نحو كان, ومن استعمله كمن حارب الامام عجل الله فرجه...". تلك الفتوى التي اوقعت اثراً بالغاً لم يسبق له نظير, حيث اضرب جميع الناس تقريبا عن استعمال التنباك وكادت هذه الفتوى ان تذهب بملك الشاه (ناصر الدين) لولا رضوخ الاخير لإرادة المسلمين تحت قيادة مرجعية (الشيرازي)[3]. وقد وصف احد الكتاب الانكليز وقع هذه الفتوى قائلاً: "في نهاية عام 1891 وصلت رسالة من مرجع في سامراء هو الميرزا محمد حسن الشيرزا تدعو الناس الى التخلي التام عن التبغ حتى يتم الغاء الامتياز, وفجأة اغلق تجار التبغ حوانيتهم, ولم يعد احد في

* من الراجح، ان الوجود الشيعي في سامراء كان قد سبق هجرة (الشيرازي) اليها، اذ انه يعود في الاقل الى عهد الامام العاشر (علي الهادي) وابنه(الحسن العسكري) عليهما السلام، اللذين تتلمذ على ايديهما اكثر من(200) شخصية دينية حملت على عاتقها نقل وبث احاديث ال البيت عليهم السلام، وظل التشيع في سامراء بين مد وجزر بحسب طبيعة الحكومات، فقد تقوى ايام البويهيين، وكان (الطوسي) حينها يتردد على سامراء عاقداً فيها الدرس والمناظرة، كما كان لتلميذه(الشريف المرتضى) داراً فيها، ثم عاد التشيع وانتكس زمن السلاجقة والعثمانيين ولاسيما في عهدي السلطان(سليم) والسلطان(مراد). للتفصيل، ينظر: اياد عيدان البلداوي، تاريخ التشيع في سامراء(بغداد: مؤسسة البلداوي الثقافية للنشر والتوزيع،2008)، ص26.

[1] صاحب محمد حسين نصار، "المرجعية الدينية في مدينة سامراء،"، مجلة ينابيع، مؤسسة الحكمة للثقافة الاسلامية، النجف، العدد 56، جمادي الاولى- جمادي الثانية1435 هـ، ص 110، ص ص112-113، و: آغا بزرك الطهراني، مصدر سابق، ص441، كذلك: جعفر الخليلي، موسوعة العتبات المقدسة، ط2(بيروت: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، 1987م)، ج1 من قسم سامراء، ص109.

[2] يونس السامرائي، مصدر سابق، ص ص48-49.

[3] Edward G. Brown ،The Persian Revolution: 1905-1909 (Cambridge: Cambridge University Press، 1910)، p. 51.

المدينة او في حاشية الشاه ولا حتى حجرات النساء يدخن, فيا للانضباط والطاعة عندما يتعلق الامر بالخضوع للأوامر التي يصدرها المجتهدون"[1].

ووقعت في سامراء نفسها حادثة كادت ان تتطور الى فتنة طائفية لولا حنكة هذا المرجع الجليل, فقد حصل اعتداء من مكون على مكون اخر, ولم يستفز ذلك (الشيرازي) مطلقاً, وعندما وصل اليه خبر استعداد اهالي الكاظمية وكربلاء والنجف للتحرك نحو سامراء ونصرته, رفض ذلك. كما صدّ محاولة القنصل الانكليزي في بغداد التدخل لإشعال فتيل الفتنة, قائلاً:"ارجو ان تفهموا ان لا دخل لكم ببلادنا مطلقا وما هذه القضية الى حادث بسيط بين اخوين"[2].

والخلاصة, وبغض النظر عن ما قيل من دوافع وراء اطلاق (الشيرازي) لفتوى التنباك التاريخية السالفة الذكر, فأن الاخيرة وما ترتب عليها من اثار جمّة كادت تشعل فتيل ثورة محققّة في ايران, كانت قد جسدت ارادة تحررية بقيادة حوزة سامراء ضد الاطماع الاستعمارية الاجنبية التي كانت تنوي الحاق الضرر المادي والمعنوي بالشعوب المسلمة. وقد أسّستت هذه الفتوى لاحقاً للركيزة الاولى في الوعي السياسي والحراك الجهادي الوطني التحرري الاستقلالي لسلسلة المراجع المتحدّرة من حوزة سامراء مع قواعدها الجماهيرية العريضة.

فضلاً عن ذلك, يمكن القول ان حوزة سامراء بمؤسسها المجدد (محمد حسن الشيرازي) كانت قد جسدت عبر فتواها ومواقفها, مشروعاً اسلامياً اصلاحياً تحررياً استهدف بالأساس مقارعة المستعمر من جهة, وارساء معالم تعايش سلمي وتحقيق وحدة الجماعة الاسلامية وحماية هويتها من جهة اخرى, في مدينة قلّ اجتماع معالمها في مدينه عراقية اخرى.

ان هذا النهج الفكري الاصلاحي القائم على التلاقح والمزج بين السعي لحماية العقيدة الاسلامية وحماية الاوطان او بعبارة اخرى التلاقح بين الهوية الاسلامية والهوية الوطنية المتضادان نظرياً, ستجتره سلسلة من مراجع الحوزة العلمية ولعل (محمد تقي الشيرازي) الانموذج الانصع لها.

المطلب الثاني: المنهج الفكري لـ(محمد تقي الشيرازي)

[1] نقلا عن: وميض جمال عمر نظمي، ثورة 1920: الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق، ط2(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1985)، ص117.
[2] علي الوردي، مصدر سابق، ج3، ص98.

توفي المرجع (محمد كاظم اليزدي1831–1919) في نيسان 1919م، والذي اخذ بنهج الابتعاد عن السياسة في اواخر حياته، حتى انه عندما سأل عن رايه في الاستفتاء آنذاك كان جوابه: "انا رجل لا اعرف بالسياسة بل اعرف هذا حلال وهذا حرام"[1] وبعد وفاته انفرد(محمد تقي الشيرازي1842– آب1920)* بمنصب المرجعية العليا بعيد انتقاله من سامراء الى كربلاء في عام 1918م، ، وكان الميرزا محمد تقي قد استلم زعامة الحوزة العلمية في سامراء بعد وفاة استاذه (محمد حسن الشيرازي), وبخلاف سلفه فقد عُرِف بنشاطه السياسي ودعمه لحركات التحرر في العالمين الاسلامي والعربي، فعندما تعرضت طرابلس الغرب (ليبيا) الى هجوم ايطالي شرس عام 1911م، وتعرضت الاراضي الايرانية الى زحف القوات الروسية عام 1912م, كان في طليعة العلماء الذين اصدروا بيانات الاستنكار والتحذير من حملات الاستعمار المسعورة ضد البلاد الاسلامية[2]. كما كان من مناصري الحركة الدستورية، ووظف سلطته الدينية كلها في تأييد المسألة العراقية من جهة، وفي نقض المعاهدة الفارسية الانكليزية من جهة ثانية[3]، كذلك راسل الشيخ الشيرازي الرئيس الامريكي (ودرو ولسن) لانه كان يعتقد بإمكانية استغلال نفوذ الدول الكبرى التي رفعت شعار "حق تقرير المصير" من اجل الضغط على بريطانيا[4]. وقد قُدّر للحوزة العلمية في العراق ان تُدشِّن العمل الجهادي الوطني مع هذا الفقيه، حين تأسست جمعية سرية تحت اشرافه باسم "الجمعية الوطنية الاسلامية"، وقد ترأسها نجله (محمد رضا الشيرازي)*.

وقد تأسست هذه الجمعية اواخر سنة 1918م في كربلاء وكان من اهم اهدافها تحرير العراق وتأسيس حكومة مستقلة فيه فعملت على بث الروح الوطنية والاسلامية بين ابناء الشعب العراقي, وكان من ابرز شعاراتها: (حب الوطن من الايمان),(للوطن نحيا وللوطن نموت) كما عملت على بث المشاعر العروبية، وكانت تصر على انضمام العراق الى الدولة العربية الموحدة التي وعد بها البريطانيون بعد الحرب العالمية

---

[1] عدي حاتم عبد الزهرة، زينب خالد عبد النبي، "موقف اهالي كربلاء من الاستفتاء البريطاني في العراق،" مجلة الباحث، العدد24، 2017، ص426.

* هو الشيخ الميرزا (لقب فارسي يطلق على من يولد من ام علوية) محمد تقي بن محب علي بن الميرزا محمد علي كلشن الحائري الشيرازي، ولد في شيراز جنوب ايران سنة 1256 هـ ، وهاجر الى كربلاء سنة 1271 هـ، وتدرج في الدراسة وتحصيل العلوم الدينية ثم هاجر الى سامراء في زمرة من اوائل المهاجرين وقرأ عن المجدد الشيرازي حتى اصبح من اقرب تلاميذه واركان بحثه، وعندما احتلت القوات البريطانية مدينة سامراء في اذار عام 1917 واخذتها من ايدي الاتراك كان هو اخر المضطرين الى مغادرة هذه المدينة متجها الى الكاظمية ثم الى كربلاء في شباط 1918م، توفي المرجع محمد تقي الشيرازي في 10 آب 1920م حين كانت ثورة العشرين التي اطلق شرارتها على اشدها. للتفصيل ينظر: كامل ياسين الجبوري، محمد تقي الشيرازي: القائد الاعلى للثورة العراقية الكبرى 1920، ط1(قم: منشورات ذوي القربى، 2006)، ص ص 5-45.

[2] المصدر السابق، ص ص 5-6.

[3] محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، ط2(لندن: دار السلام،1990)، ص104.

[4] جاسم محمد ابراهيم اليساري،"الشيخ محمد تقي الشيرازي ودوره في الثورة العراقية عام 1920: دراسة تاريخية،" دورية اهل البيت ، العدد15، جامعة اهل البيت، د.ت، ص 303.

* الشيخ محمد رضا الشيرازي هو اكبر ابناء محمد تقي الشيرازي وساعده الايمن في تأجيج الثورة العراقية عام 1920 ضد الاحتلال البريطاني وكان صلة الوصل بين والده والعشائر العراقية الثائرة، تم اعتقاله وسجنه ثم نفيه الى جزيرة (هنجام) في الخليج العربي ثم افرج عنه وسافر الى ايران ومكث فيها طيلة حياته حتى وفاته عام 1375 هـ . المصدر السابق، ص 288.

الاولى[1]، ولم تكن العروبة مجرد شعار سياسي لدى المرجعية آنذاك يستهدف كسب الشارع الى صفوف الجهاد فحسب، وانما كانت توحي بقوة حضور الطابع العروبي للعراق في وعيها، ومركزية المشروع العربي ككل لديها. اتضح ذلك في تأكيد مرجعية (محمد تقي الشيرازي) على انتماء العراق الى عمقه العربي، حين صرّح بـ: "يجب على الجمعية (الجمعية الاسلامية) ان تفرغ قصارى جهدها في سبيل ضم المملكة العراقية الى لواء الوحدة العربية"، وفي رسالة وجهها (الشيرازي) الى الملك (فيصل)، عدّ (الشيرازي)"الجامعة العربية": يقصد الوحدة العربية، عنوان "المجد الاسلامي الرفيع"، وقد ذهب نجله (محمد رضا) الى ابعد من ذلك في رسالة بعثها الى الامير (علي) ولي عهد الحجاز، حين استعمل مصطلحات اكثر حداثة من مصطلحات والده، كـ"القومية" و"الوحدة العربية"[2]، لكن أُسدِل الستار على هذه الجمعية بعد اعتقال نجل (الشيرازي) ونفيه مع اخرين، وكانت باكورة فتاوى (محمد تقي الشيرازي) السياسية تلك التي حذر فيها من تأييد الانكليز عام 1919م، مؤكداً ذات الموقف الذي اتخذته "الجمعية الاسلامية"، اذ قال: "ليس لاحد من المسلمين ان ينتخب ويختار غير المسلم للأمارة والسلطنة على المسلمين"[3], ونتيجة لمواقفه تلك حاول البريطانيون استرضاءه، ففي حزيران عام 1919م, جاء الحاكم الانكليزي في العراق (ويلسن) الى كربلاء للتباحث مع آية الله الشيرازي, وكان (ويلسن) يتقن الفارسية وعرض على الشيرازي تعيين شخصية شيعية في منصب كليدار سامراء بدلا من المسؤول السني فأجابه الشيخ الشيرازي: "لا فرق عندي بين السني والشيعي والكليدار الموجود رجل طيب ولا اوافق على عزله" فانتقل ويلسن الى موضوع المعاهدة الايرانية البريطانية وما فيها من فوائد لإيران, فأجابه الشيخ الشيرازي:"نحن في العراق ونتكلم عن العراق وان حكومة ايران وشعبها اعرف بشؤونهم منا"[4].

يتضح مما سبق ان (ويلسن) حاول ان يضرب على الوتر الطائفي عند لقائه بالشيرازي وعندما فشل في ذلك انتقل الى الضرب على الوتر القومي معتقدا ان الشيخ الشيرازي رجل ايراني الاصل ويمكن ان يميل الى بلده لكن الشيخ الشيرازي احبط هاتين المحاولتين بل وكل محاولات استرضائه من قبل البريطانيين، كما اصدر(الشيرازي) من كربلاء كذلك, فتوى اخرى عدّ فيها الخدمة لصالح الانكليز امرا غير مشروع, ما تسبب باستقالات جماعية متتالية، وجاءت فتواه الشهيرة الثالثة في انتفاضة الرميثة (مدينة تقع في السماوة جنوب العراق) لتكون بمثابة المقدمة لثورة العشرين، حيث حثت العراقيين على الجهاد ضد الانكليز حين نصت

---

[1]حاتم عبد الزهرة، زينب خالد عبد الغني، مصدر سابق، ص 423.

[2] للتفصيل، ينظر: حسن العلوي، الشيعة والدولة القومية في العراق1914-1990(قم: دار الثقافة للطباعة والنشر،1990)، ص ص115-116.

[3]علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ج5، القسم الاول، ص103، وكذلك: جعفر الشيخ باقر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ط2(بيروت: دار الاضواء،1986)، ج1، ص354.

[4]كامل ياسين الجبوري، مصدر سابق، ص 95.

على ان: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين... ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية، اذا امتنع الانكليز عن قبول مطاليبهم"[1]. وحين عُقد اجتماعا سريا دينيا- قوميا- عشائريا في كربلاء في ايار 1920, اعرب (محمد تقي الشيرازي) فيه عن رغبته بالحلول السلمية خشية انفلات الاوضاع وازهاق الارواح, غير انه بعد طمأنته من اعضاء التحالف المذكور ووعدهم اياه بالتزام حفظ الامن, اجاب: "اذا كانت هذه نواياكم ووعودكم, فليكن الله معكم"[2]. وهكذا فلم يترك هذا المرجع سليل حوزة سامراء اية فرصة الا ووظفها لصالح القضية العراقية الوطنية، غير انه توفي ولم تزل نيران الثورة متوقدّة، فانتقلت القيادة من كربلاء الى النجف الاشرف، حيث شيخ الشريعة (فتح الله الاصفهاني) الذي اعلن التزامه بنهج(الشيرازي) حين قال: "ان الشيرازي انتقل الى رحمة الله، ولكن فتواه بقتال المشركين باقية، فجاهدوا واجتهدوا في حفظ وطنكم العزيز واخذ استقلالكم"[3]. لكن هو الاخر توفي في نفس عام وفاة (الشيرازي) .

ان ما يمكن استخلاصه بالعموم من تجربة حركة الجهاد العراقية الاستقلالية الوطنية، هو بلوغ حوزة سامراء بمراجعها ومرجعية العراق بالعموم, ذروة مكانتها كبؤرة للعواصف السياسية، وكأداة رئيسة في التحريك السياسي عبر فتاواها السياسية، مع ان شغل هذه المؤسسة في الاساس يقتصر على المجال الديني، أي لم يكن دور حوزة سامراء هنا دينياً خالصاً، بل ظهر ايضاً من خلال برامجها انه دور سياسي اشتمل على مشاريع تحررية وطنية وعربية واسلامية ودستورية في ذات الوقت، فقد اختلط الديني بالسياسي: حين دخل عنصر الدين كعنصر رئيسي في حث الناس على الجهاد وايضاً دخلت مفردات سياسية من قبيل "دستور" و"وطنية" و"استقلال" لم تكن مألوفة من قبل. وكأن هذه التوليفة من العناصر التي كان بعضها في الاصل متضادا، امتداد للنهج الفكري الاصلاحي الذي اختص به (الشيرازي) الكبير مؤسس حوزة سامراء, وللخط الهوياتي التوفيقي الاصلاحي الاسلامي الحديث الذي صاغه من قبل (الافغاني) و(عبده) و(الكواكبي). حيث ان الهدف هو الاسلام الذي عِزّته من عزة العرب، ومن اجل النهوض به ليصبح قادراً على مواجهة زحف الاستعمار الغربي، كان لابد من الانفتاح على الواقع واستلهام تجربة الدستور والمجلس النيابي وان كانت من مرجعية مغايرة للإسلام.[4]

وما نخلص اليه ان الوجهة الهوياتية الغالبة على مدرسة العراق كما جسدتها حوزة سامراء في هذه الحقبة التاريخية المفصلية من تاريخ العراق المعاصر هي الوجهة التقليدية، حيث مؤسسة دينية تؤمن بان وظيفتها

---

[1] علي الوردي، مصدر سابق،ج5، القسم الاول، ص235

[2] وميض جمال عمر نظمي، مصدر سابق، ص374.

[3] عدنان عليان، الشيعة والدولة العراقية الحديثة: الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي1914-1958، ط1(النجف: مؤسسة العارف للمطبوعات، 2005)، ص335.

[4] شروق اياد خضير، مصدر سابق، ص 292.

الاساس هي الوظيفة الدينية، غير انها قد تتدخل على نحو استثنائي في المجال السياسي في اللحظات الحاسمة التي يمر بها الوطن، ولم يمنع ذلك تأثرها وانطلاقاً من موقف وطني، بالنزعة الدستورية التي بلغت اوجها في الثورة الدستورية في ايران 1905–1907م, ولم تطرح المرجعية او ترعَ اي مشروع يتقاطع مع الهوية الوطنية العراقية وكان(محمد تقي الشيرازي) التجسيد الامثل لخطها. وهذا الخط التقليدي الذي جسدته على ارض الواقع حوزة سامراء والذي يقيم نوعا من التمايز بين المجالين الديني والسياسي، ويراعي خصوصية الهوية الوطنية العراقية، هو الخط الذي سارت عليه المرجعية في العراق في اطوارها المختلفة، وهو ما عكسته مواقف المرجعية لاحقاً في اللحظات التاريخية الحاسمة زمن مرجعية السيد محسن الحكيم ثم مرجعية السيد ابو القاسم الخوئي، واخيرا مرجعية السيد علي السيستاني، والسؤال هنا, هل استوعبت مدينة سامراء هذه الدروس؟ او بعبارة اوضح: ما اهمية استلهام هذا الخط الفكري لحوزتها في حاضر سامراء ومستقبلها؟ الاجابة على ذلك هي محور اهتمام المبحث اللاحق.

ثالثاً: سامراء: الارث الحضاري والوطني

تختزل مدينة سامراء الارث الحضاري لبلاد الرافدين عبر مراحله التاريخية المختلفة، أذ كانت المدينة ملتقى لمختلف الاقوام والحضارات التي تعاقبت على العراق، مثلما كانت ميدانا لتعايش مختلف الاديان والمذاهب فيها قبل، وبعد الفتح الاسلامي واختيارها عاصمة للخلافة العباسية ثم مثوى للاماميين العسكريين (عليهما السلام)، وقد ساهم ذلك في اغناء العمق الوطني للهوية في سامراء عقب تأسيس الدولة العراقية، وهو العمق الذي رسخته تاريخيا حوزة سامراء. وعليه سيتوزع هذا المبحث على مطلبين يتناول الاول منهما الارث الحضاري والهوية الاسلامية لسامراء، ويتناول الثاني الهوية الوطنية للمدينة ومركزتيها في مشروع بناء الوحدة الوطنية.

المطلب الاول: الارث الحضاري والهوية الاسلامية

ينتمي اسم (سامراء) الى سائر الاسماء الآرامية في العراق التي شاع استعمالها في العراق منذ أقدم العصور، مثله مثل اسم كربلاء وبعقوبة وغيرها الكثير من الاسماء، وقد اضيفت الهمزة الى اخره لاحقا في اللغة العربية، والراجح ان معناه في الآرامية طريق سام وسام ابن نوح(عليه السلام)[1]. وقد ذكر (ياقوت

[1] جعفر الخليلي، مصدر سابق، ص ص7-10.

الحموي) عدداً من الاقوال حول اصل التسمية[1], ولكن يبدو ان اختلاف المؤرخين في اصل تسميتها بين من يرجعه منهم الى (سام ابن نوح) أو (سام راه) عند الفرس و(سومير) عند الساسانيين او (سيمروم) عند الرومان او(سرماته) لدى الأشوريين او(سامرا) عند الاراميين او(سرّ من رأى) عند العباسيين, وصولا الى التسمية الحالية (سامراء)[2]، يعكس بحد ذاته الثراء الحضاري للمدينة الذي قلّ نظيره.

وقد اثبتت التنقيبات الاثارية ان جذور مدينة سامراء ضاربة في القدم، بل ربما تكون اقدم من مدينة اربيل التي عدّت في السابق أقدم مدينة في العراق والعالم، اذ تعود الى عصور ما قبل التاريخ، وهناك من يرى ان السومريين انطلقوا منها لتأسيس اولى الحضارات في تاريخ البشرية، كما ان هناك من يرى انها تعود الى عصور الاشوريين او البابلييين او الكلدانييين[3]. وفي ايام الاحتلال الساساني للعراق كانت سامراء جزء من منطقة تعرف بـ(الطبرهان) والاخير اسم اقرب الى الفارسية منه الى اللغات السامية، مقارنة بسامرا التي تنتمي الى اللغات العراقية القديمة[4]، والراجح ان اصل التسمية يعود الى الآرامية كما بينا.

كانت المدينة قبل الفتح الاسلامي موطنا للنصارى من سكان العراق الاصليين، اذ يذكر المؤرخون ان الخليفة العباسي (المعتصم) عندما وقع اختياره عليها كعاصمة للخلافة, اشترى ديراً وبستاناً من الرهبان النصارى ليؤسس اول مرافق العاصمة عام 221هـ-836م، وعندما سألهم عن اسم الموضع قيل له: سامرا وان معناها وجدوه في الكتب القديمة [5], وهوما يشير الى ان هذه التسمية هي الاقدم من تسمية (سر من رأى) التي تنتسب لمرحلة الخلافة العباسية.

وطيلة اكثر من نصف قرن من الخلافة العباسية فيها, ضمت المدينة بين ظهرانيها سكانها الاصليين من النصارى الى جانب المسلمين بفرقهم ومذاهبهم المختلفة, وقد تناوب عليها الاساقفة النسطوريين لأهميتها[6]مع تناوب خلفاء بني العباس الثمانية فيها بدءاً من (المعتصم) مروراً بـ (الواثق) و(المتوكل) و(المنتصر) و(المستعين) و(المعتز) و(المهتدى) ف(المعتضد), واستمر الحال كذلك حتى بعد سقوط الخلافة العباسية[7].

---

(1) شهاب الدين ابن عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر،1993)، مج3، ص ص173-174.
(2) محمد ابراهيم عبد الجنابي، "مدينة سامراء عاصمة الخلافة العباسية من سنة221هـ وحتى279هـ ،" مجلة جامعة تكريت للعلوم، مج19، العدد12، كانون الأول 2012، ص ص270-271.
(3) يونس ابراهيم السامرائي، تاريخ مدينة سامراء، ط1(بغداد: المجمع العلمي العراقي، 1968)، ج1، ص16.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) جعفر الخليلي، مصدر سابق، ص15.
(6) الامانة العامة للعتبة العسكرية المقدسة، سامراء في التاريخ واللغة، متاحة على الموقع الالكتروني:
http://www.askarian.iq/pages?id=10 _ تاريخ زيارة الموقع: 15-3-2021
(7) دائرة الاثار القديمة، الاثار القديمة في العراق: سامراء (بغداد: مطبعة الحكومة، 1940)، ص16.

وقد واصلت المدينة ازدهارها منذ تأسيسها كعاصمة للدولة العباسية, حتى صارت على حد تعبير (القزويني): "اعظم بلاد الله بناءً واهلا"[1], وقد زادها تشريفا ورفعة اقامة الاماميين العسكريين، وضم ثراها لرفاتهما الطاهر، فاحتلت منزلة رفيعة في قلوب المسلمين بعامة والشيعة منهم بخاصة.

ويذكر (المسعودي) في (مروج الذهب) ان سامراء كانت اخر المدن العظيمة التي شيدها المسلمون الى جانب البصرة والكوفة والفسطاط وواسط والرملة وبغداد, ثم ساء حالها بعد مقتل (المتوكل) ولم تزل في نقصان الى زمن (المعتضد) الذي هجرها الى بغداد[2] فلم يبق فيها كما يقول (القزويني): "ألا كرخ سامرا وموضع المشهد والباقي خراب بباب يستوحش الناظر اليها بعد ان لم يكن في الارض احسن ولا اجمل ولا اوسع ملكا منها"[3], فاستحالت الى قرية صغيرة وان احتفظت بمكانتها الرفيعة لوجود المرقدين الشريفين فيها، فيها، الى ان احياها من جديد قدوم المرجع الديني الكبير (محمد حسن الشيرازي)[4] لتدبّ فيها الحياة مجددا, وتستعيد الكثير من مجدها الحضاري ومكانتها الاسلامية المرموقة.

ان الارث الحضاري لسامراء وتأسيس حوزة سامراء والمدارس الدينية السنية فيها عقب قدوم الميرزا (الشيرازي) ووجود المرقدين الشريفين في المدينة، وطبيعتها السكانية التي عكست روح التعايش الديني والمذهبي والقومي جعلت منها منارة للإشعاع الحضاري والاسلامي، وهو الذي حتم ضرورة احياء هذا الارث الحضاري والاسلامي والذي تجسد اليوم بتشريع قانون سامراء عاصمة العراق للحضارة الاسلامية رقم(5) لسنة2018 والذي اشار في الاسباب الموجبة لتشريعه: "من اجل تعزيز الدور الحضاري والدور الديني لمحافظة صلاح الدين وتنشيط الحركة السياحية والاثارية والدينية والثقافية في العراق. شُرّع هذا القانون"[5].

وفي تشرين الثاني صدر قانون التعديل الاول للقانون اعلاه ونص في المادة(1- اولا): "ابراز دور العتبة العسكرية المقدسة لما تحمله من عمق ديني وتاريخي وكونها مصدر اشعاع ثقافي وعلمي وحضاري ناتج عن دور الامامين عليهما السلام ولما لهذا الدور في خلق التعايش السلمي والتواصل الانساني بين المكونات جميعا"[6] . على ان يشكل مجلس الوزراء لجنة تحضيرية لإعلان المدينة عاصمة للعراق للحضارة للحضارة الاسلامية وتتألف من شخصيات وطنية واكاديمية برئاسة رئيس جامعة سامراء.

---

[1] زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت: دار صادر، د.ت)، ص386.
[2] ابو الحسن علي بن الحسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، مج4، ص357.
[3] زكريا بن محمد بن محمود القزويني، مصدر سابق، ص386.
[4] محسن الامين، مصدر سابق، ج1، القسم الثاني، ص367.
[5] الوقائع العراقية: الجريدة الرسمية لجمهورية العراق، العدد 486، السنة59، 22رجب، 9نيسان2018، ص17.
[6] مجلس النواب العراقي، قانون التعديل الاول لقانون سامراء عاصمة العراق للحضارة الاسلامية. متاح على الموقع الالكتروني: https://ar.parliament.iq/2020/10/27 تاريخ زيارة الموقع 17-3-2021

وهذا المشروع من شانه ان سلم من التجاذبات السياسية ومافيات الفساد ان يعيد امجاد مدينة سامراء كمركز مهم للإشعاع الحضاري، وبالإمكان تعزيزه من خلال تأسيس مؤسسات علمية وثقافية تركز على الحوار الحضاري والتعايش المذهبي في العالم الاسلامي في بلد كان مهد الحضارات والديانات, وعلى ارضه تأسست وتعايشت جل المذاهب والفرق الاسلامية المختلفة، وسامراء بتراثها الحضاري والاسلامي هي الاقدر على لعب هذا الدور، مثلما انها الاقدر على ان تشكل ضمانة الهوية والوحدة الوطنية العراقية .

المطلب الثاني: الارث النضالي والهوية الوطنية

ان الكيان السياسي للعراق الحديث هو نتاج تاريخي لعملية التوحيد السياسي والاقتصادي للولايات العثمانية الثلاث: بغداد والبصرة والموصل، وهذه الصيرورة التاريخية لم تبدأ الا منذ القرن التاسع عشر، اما قبل ذلك فقد كان العراق يعاني اوضاعاً صعبة اعاقت نمو الوعي الوطني[1]، وكما عبّر (علي الوردي) فان المجتمع كان محكوم بأمرين: الصراع التركي الايراني وما نتج عنه من نزاع ووعي طائفي, وسيطرة المد البدوي على المجتمع[2].

لقد جاءت ولادة الولاء الجديد للوطن نتيجة جملة تطورات في مجال التواصل والبرق والكهرباء وفتح المدارس الحديثة ونمو التجارة[3]. الا ان العامل الحاسم في تقدم الولاء والشعور القومي الجديد كان في الواقع هو الاحتلال الانكليزي للبلاد(1914–1918م)، والمقاومة التي اثارها والتي وصلت الذروة مع ثورة العشرين حيث اطلقت الاخيرة عملية النمو الصعب والتدريجي لمجتمع وطني عراقي, رغم اختلاف الباحثين في تحديد طبيعتها[4]. ولم تكن مدينة سامراء بمنأى عن مجمل تلك التطورات، فقد كانت قضاء تابعاً لولاية بغداد في العهد العثماني ثم لمحافظة بغداد بعد تأسيس الحكم الوطني وحتى عام 1976م، حيث لحقت المدينة كمركز قضاء تابع لمحافظة صلاح الدين بعد استحداث الاخيرة[5].

لقد قاد انتقال المرجع(محمد حسن الشيرازي) اليها، وتأسيس حوزة سامراء الى ان تصبح المدينة في قلب التطورات السياسية منذ نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كما تبيّن سالفا، فقد عكست المدينة من خلال حوزتها اولاً ومواقف عشائرها ثانياً تمسكها بالهوية الوطنية، وقد جسدت ثورة العشرين أجلى صور

---

(1) وميض عمر نظمي، مصدر سابق، ص 31.
(2) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث،ط2(لندن: كوفان للنشر، 1991)، ج1، ص5.
(3) حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، الكتاب الاول، ترجمة: عفيف الرزاز، ط2(بيروت: مؤسسية الابحاث العربية ،1996)، ص40.
(4) للتفصيل ينظر: نديم عيسى خلف، الفكر السياسي لثورة العشرين(بغداد:دار الشؤون الثقافية،1992)، وكذلك: فاضل حسين"طبيعة ثورة العشرين في العراق،" مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، العدد38، مايس 1980، ص ص 335وما بعدها.
(5) الامانة العامة للعتبة العسكرية المقدسة، مصدر سابق.

التلاحم الوطني بين مكونات المجتمع المذهبية والعرقية، فبعد مقتل الضابط البريطاني في لواء الدليم(ليشمان) على يد (ضاري) شيخ عشيرة زوبع اصبح الطريق ممهداً لمبعوث حوزة النجف السيد (محمد الصدر) لإلهاب حماس العشائر في سامراء ضد الانكليز، وقد افلح في اقناع شيخ قبيلة عزة فيها (حبيب الخيزران) بمجابهة الاحتلال، واقتنع الشيخ بذلك واقسم على الاخلاص والولاء والتعاون مع السيد (الصدر)، وفعلاً ارسل الخيزران مبعوثاً منه الى سائر انحاء سامراء، داعياً القبائل التي اغلبها على المذهب السني للانضمام الى السيد(محمد الصدر) ونصرته، واصبح الالاف من المقاتلين على اهبة الاستعداد للمجابهة، وكانت باكورة اعمالهم الحربية الحاق الضرر بالمنشآت الحيوية للإنكليز وخطوط اتصالاتهم[1].

وفي 28 اب 1920م قاد السيد(محمد الصدر) العشائر الثائرة في المدينة وفي مقدمتها عشائر الجبور والبوفراج والبوعزة والبوباز والخزرج والبوجواري والبوعباس وبني تميم[2]. وقد حاصرت العشائر مركز المدينة لثمانية ايام ولم يستطع الانكليز فك الحصار عن المدينة لإنقاذ معاون الحاكم السياسي (الميجر بري) ومن معه من جنود بريطانيين الا بصعوبة بعد قصف العشائر بالطائرات وارسال مفرزة بريطانية[3].

وفي الواقع, ادركت حوزة سامراء اهمية المدينة بطبيعتها الديموغرافية وبمرقديها الشريفين، كضامن مهم للوحدة الوطنية لذا حرصت على ابراز الهوية الوطنية وتجسيد صور التعايش المجتمعي فيها، وعليه يمكن القول وبدون موارية ان حوزة سامراء هي التي اسست للخط الوطني في مسيرة المرجعية الشيعية في العراق، وهو الخط الذي اصبح المعلم الابرز للمرجعية الدينية في اطوارها اللاحقة.

ومن جهة اخرى ادرك تنظيم القاعدة الارهابي بعد عام 2003م ايضاً مركزية سامراء في المشروع الوطني، فحينما فشل طيلة ثلاث سنوات في جر المجتمع الى أتون حرب طائفية، وجد ضالته في 22شباط 2006م في سامراء من خلال تفجير مرقدي الامامين، واشعال فتيل العنف الطائفي في ارجاء البلاد الذي لم يخمد اواره حتى عام 2008م[4].

وهو الامر الذي سعى الى تكراره ابن سامراء وزعيم تنظيم الدولة الاسلامية(داعش) الارهابي (ابو بكر البغدادي)، بهدف دك مرتكزات ومداميك الوحدة الوطنية والتعايش المجتمعي، ولكنه فشل في جعل سامراء

---

(1) عبدالله فهد النفيسي، مصدر سابق، ص ص 148-149.

(2) فراس صالح خضر الجبوري، "الجذور التاريخية للهوية الوطنية العراقية: ثورة العشرين انموذجاً،" مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، العدد26، 2019، ص 340.

(3) موقع المعرفة، ثورة العشرين . متاح على الموقع الالكتروني:
https://www.marefa.org/ تاريخ زيارة الموقع 18-3-2021

(4) هاورد. جيه. ساتز، وايرين اليزابيث جونسون، الدولة الاسلامية التي عرفناها: رؤى متبصرة فيما قبل الظهور ودلالاتها، مؤسسة راند، 2016، ص 7.

منطلق لمشروعه التقسيمي كما فعل الزرقاوي، فرغم ان التنظيم نجح في عام 2014م في اسقاط اكثر من ثلث مناطق العراق(الانبار – الموصل– اكثر اجزاء صلاح الدين) الا انه فشل في اسقاط مدينة سامراء، لإدراك القيادات السياسية والعسكرية بعد احداث 2006م لأهمية المدينة ومركزتيها، وبفضل صمود القوات الامنية العراقية، وقوات الحشد الشعبي التي تشكلت بفتوى الجهاد الكفائي للمرجع الاعلى السيد(علي السيستاني)، والتي استطاعت في عام 2016م، من تحرير كامل المناطق من سيطرة التنظيم الارهابي*.

لقد اثبتت التطورات السياسية والاجتماعية التي شهدها العراق في تاريخه الحديث والمعاصر ان مدينة سامراء بخصوصيتها الاجتماعية والدينية والثقافية تشكل ضمانة الوحدة والهوية الوطنية، وهو ما يستدعي ابعاد المدينة عن لجة المشاريع السياسية الداخلية والاقليمية [1], والتي تسعى الى الباس المدينة ثوباً مذهبياً او سياسياً لا يتناسب مع تاريخها وارثها الوطني من خلال المطالبة باستحداث محافظة مذهبية وعزل المدينة عن محيطها وواقعها الديموغرافي، وهي مشاريع لا تقل خطورة عن مشاريع تنظيمي القاعدة و(داعش) الارهابيين في نسف مرتكزات واسس الوحدة الوطنية واللحمة الوطنية العراقية، فعلى كل الاطراف الوطنية المخلصة ومن كل الاطياف ان تعي حساسية ومركزية سامراء في تقرير مستقبل العراق واستقلاله، فهي مركز العصب والعطب معاً في بنية الوحدة والهوية الوطنية العراقية.

الخاتمة:

ان مفهوم المرجعية مفهوم حديث خاص بالتشيع الامامي دون غيره من المذاهب الاسلامية, ويتركب في الاساس من عنصرين رئيسين هما: المجتهد الاعلم (مهمته الدائمة دينية روحية عابرة للاوطان مع فعالية سياسية متحركة بحسب الظروف), وقاعدة جماهيرية عريضة من المقلدين. غير ان ما ميز مرجعية العراق دون غيرها, هو وطنيتها وعراقيتها واقتصار فعاليتها السياسية المتذبذبة, في الغالب, على حدود الوطن, اذ انها لم ترع مشروعا هوياتيا مسيسا من شانه تجاوز الهوية الوطنية او التقابل معها, بل على العكس من ذلك وهو ما نمّت عنه مواقفها.

* ولد ابو بكرالبغدادي باسم(ابراهيم عواد السامرائي) في عام 1971م في (الطوبجي) احدى مناطق سامراء الفقيرة، وانضم الى حركة التمرد السلفي في عام 2003 م، وسقط بيد القوات الامريكية وتم اخلاء سبيله، صعد لدفة القيادة في التنظيم الارهابي عام 2010 م بعد مقتل ابو عمر البغدادي.حكم اجزاء واسعة من العراق وسوريا قبل تحريرها، وقتل في مدينة ادلب السورية في 27 تشرين الاول عام 2019م . ينظر:فرانس24، مقتل ابو بكر البغدادي نهاية مسيرة الرعب لابن سامراء العاق . متاح على الموقع: https://www.france24.com/ar/20191027 تاريخ زيارة الموقع: 22-2-2021

[1] محمد شعت، العبث بالجغرافيا.. دلالات المخطط الإيراني لإنشاء محافظة مذهبية في العراق الخميس 21/فبراير/2019 متاح على الموقع: https://www.almarjie-paris.com/6858 تاريخ زيارة الموقع: 2-3-2021.

ويمكن القول وبدون موارية ان حوزة سامراء بمؤسسها المجدد (محمد حسن الشيرازي)، وتلميذه المرجع (محمد تقي الشيرازي) كانت هي التي اسست عبر فتاواها ومواقفها, لهذا الخط الوطني في مسار المرجعية الشيعية، فقد جسدت مرجعيتهما مشروعا اسلاميا اصلاحيا تحرريا استهدف بالأساس مقارعة المستعمر من جهة, وارساء معالم تعايش سلمي وتحقيق وحدة الجماعة الاسلامية وحماية هويتها من جهة اخرى, في مدينة قلّ اجتماع معالمها في مدينه عراقية اخرى.

وقد بلغت حوزة سامراء بمراجعها ومرجعية العراق بالعموم, ذروة مكانتها كبؤرة للحراك الجهادي الوطني، وكأداة رئيسة في التحريك السياسي عبر فتاواها، أي لم يكن دور حوزة سامراء هنا دينياً خالصاً، بل ظهر ايضاً من خلال برامجها انه دور سياسي اشتمل على مشاريع تحررية وطنية وعربية واسلامية ودستورية في ذات الوقت.

ان هذا الخط الفكري الوطني والتحرري الذي ارست معالمه في واقع العراق الحديث والمعاصر حوزة سامراء جاء معبرا عن الاتجاه الهوياتي التقليدي للحوزات العلمية ولمراجعها في العراق، وهو خط ترسخ من خلال السياق السياسي التقليدي المتمثل بنظرية الغيبة والانتظار وعدم اقتحام المرجع للمجال السياسي الا في حالات خاصة ومصيرية كما هو في حالة الاحتلال وتأسيس الحكم الوطني، وبالتالي ايجاد نوع من التمايز بين المجالين الديني والسياسي. وهذا السياق السياسي في مسار تطور الفكر السياسي الامامي لا ينفصل عن السياق الهوياتي المعاصر لتطور هذا الفكر فالمرجعية لم ترعَ البتة, مشروعا هوياتيا مذهبيا من شأنه ان يتقاطع مع الهوية الوطنية العراقية, بل على النقيض كان همها وطنيا خالصا, لا بل يبدو ان وطنية مرجعية النجف الاشرف او عراقيتها وتشربها بالهوية الوطنية هي احد مصادر تشككها بأطروحة ولاية الفقيه المطلقة وما تستبطنه الاخيرة من مشروع هوياتي مذهبي عابر للأوطان, وكذلك اعتصامها بدل ذلك بالهوية الامامية التقليدية. اي ان مبعث نزوعها نحو الهوية الامامية التقليدية ليس النصوص والسرديات الدينية فحسب, وانما يستبطن كذلك التزاما مستمرا بالدفاع عن عراقية المرجعية ووطنيتها ومركزتيها في العالم الاسلامي.

من جانب اخر فقد كان لخصوصية مدينة سامراء الحضارية والدينية والديموغرافية انعكاسها البين على الرؤى الهوياتية لحوزة سامراء التي احتفظت بخصوصيتها من بين الحوزات العلمية الشيعية الاخرى، فقد ادركت المرجعيات الدينية مركزية سامراء واهميتها في الاطار الديني والوطني وضرورة مراعاة خصوصية المدينة كضامن مهم للوحدة الوطنية والتعايش المجتمعي، وقد حمل هذا الادراك رؤية استشرافية مستبصرة

جسدتها احداث ما بعد عام2003م، لا سيما عقب تفجير المرقدين الشريفين في 2006م، والتي بينت ان سامراء تشكل مركز العصب والعطب معاً في بنية المشروع الوطني العراقي وهويته الوطنية.

التوصيات:

1- ابعاد مدينة سامراء عن لجة المشاريع السياسية الداخلية والاقليمية, والتي تسعى الى الباس المدينة ثوباً مذهبياً او سياسيا ضيقاً لا يتناسب مع تاريخها وارثها الوطني، وهي مشاريع لا تقل خطورة عن مشاريع تنظيمي القاعدة و(داعش) الارهابيين في نسف مرتكزات واسس الوحدة الوطنية، واللحمة الوطنية العراقية.

2- على كل الاطراف الوطنية المخلصة ومن كل الاطياف ان تعي حساسية ومركزية سامراء في تقرير مستقبل العراق واستقلاله الوطني، ومن الضروري هنا الاستهداء بنهج المرجع محمد حسن الشيرازي في التعايش المجتمعي في سامراء، واشراك اهلها بشكل فاعل في ادارة شؤونها، وبخاصة في الملف الامني فأهل مكة ادرى بشعابها، وجعل هذا الملف حصرا بيد الاجهزة الامنية الرسمية دون اي مسميات اخرى.

3- انجاز مشروع سامراء عاصمة العراق للحضارة الاسلامية بروح الوحدة الاسلامية والوطنية معاً، وهو النهج الذي ارسته وجسدته المرجعية الشيرازية من خلال مرجعيها محمد حسن الشيرازي ومحمد تقي الشيرازي، وهنا تبرز اهمية تأسيس مؤسسات ومراكز علمية وثقافية، تحت مسمى مركز الامام العسكري او جامعة الشيرازي تركز على الحوار الحضاري والتعايش المذهبي في العالم الاسلامي في بلد كان مهد الحضارات والديانات, وعلى ارضه تأسست وتعايشت جل المذاهب والفرق الاسلامية المختلفة، وسامراء بتراثها الحضاري والاسلامي هي الاقدر على لعب هذا الدور.